الاشجار المتحجرة

لقد صدق مَن قال ان مصر بلاد العجائب وموطن الغرائب فان اهرامها ومسلاّتها وهياكلها وتماثيلها تفوق وصف الواصفين ونهرها من اعجب الانهار واقليمها من اغرب الاقاليم ونباتها وحيواناتها كرّت عليها الدهور الطوال فلم تغيّر من حالها شيئًا . وطالما تاقت النفس الى مطالعة اخبارها وتنقُّد آثارها ومشاهدة ما فيها من غرائب الطبيعة ولا سيّما الاشجار التي تحوّلت صخورًا صمّاء في العصور الخالية فصبرَتْ على نوائب الدهر وما على نوائبه أصبر من الصخر . وهي الآن شرقي القاهرة وغربيّها يقصدها السيّاح ورجال المعارف ويستطلعونها عن اجناسها وانواعها فتنطق وتُفصح وتخبر بحالها وخمرها ولا تكتم شيئًا من دخيلة امرها . فقصدنا الأجمة الشرقيّة في ليلة قمراء مع صحبة أُشربت قلوبهم حب المعارف واتخذنا الشرق لنا اماءً والنجوم اعلامًا فاجتزنا القرافة الكبرى ومررنا بين قبور الخلفاء ودخلنا شِعْب المقطّم وصعّدنا في شاطىء البحر القديم الذي كان غامرًا وادي النيل في العصر الجيولوجي المعروف بعصر الميوسين . فان في تلك الصخور الكلسيّة التي تُقطَع منها الحجارة لبناء بيوت القاهرة آثارًا كثيرة تدلّ على ان امواج البحر كانت ترغي عليها وتزبد وحيواناته تعيش في تخاريبها وتموت . واوّل من بيّن ذلك في ما نعلم هو العلاّمة فراس ثمّ تحقّقه كثيرون من العلماء مثل شفينفورث وغيره . ولم نقف هناك طويلاً مخافةَ ان يدركنا الحرّ وحرّ الصحراء لا يطاق فواصلنا السرى ونحن نرى المسايل عن يميننا وعن شمالنا كأنّ الماء جرى فيها بالامس . والمطر نادر جدًّا في جهات القاهرة ولكنه لا يندر وقوعهُ على قنن المقطّم في فصل الشتاء فيفعم هذه المسايل وتبقى آثار جري الماء فيها من عام الى عام

ذكر الاستاذ هكسلي انهُ رأى هذه المسايل منذ نيف وعشر سنوات وفيما هو يتعجّب من شدة مشابهتها لمجاري الماء اكفهرّ وجهُ السماء وسحّت الامطار سحًّا حتى "أنهرَت الصفاصف وحوّضت الاصالف" وبلّلت ثيابهُ الى العظام وعلّمتهُ في الفزيوغرافيا[1] علمًا لا ينساهُ مدى الايام . وحقّقت لهُ ان هاتيك القفار تمطرها السماء نهلاً لا حكمًا وتلك المسايل تجري فيها المياهُ حقيقةً لا وهمًا

وما زالت الطريق تميل بنا تارةً الى الشمال وطورًا الى الجنوب الى ان ضمنت درهمة النجوم وتأهّب الصبح للهجوم واسفرت الزهرة عن محيّاها وبصبص السرحان بذنبه وحيّاها وسبّحت الخلائق

(١) علم الجغرافيا الطبيعية . وللاستاذ هكسلي كتاب مشهور فيه

مجد مولاها . وكنّا قد صرنا في نجد مع الارض يعلو عن سطح بحر الروم نحو الف من الاقدام ومهمه مغبرّة ارجاؤهُ مسودّة حصباؤهُ اقسم النبات ألّا يضرب عروقهُ فيهِ والحيوان ألّا يبيت في فيافيهِ . فقال لنا المخبر انتم بين الخشب المتحجّر . فتركنا ازمّة ركائبنا مع اصحابها وضربنا في تلك المهامه حتى اذا تبلّج وجه الصباح وأرسلت الغزالة اشعّتها على تلك البطاح . رأينا الارض مكسوّة بقطع الاخشاب واجذاع الاشجار كأنّ حطّابًا عبث بها بفأسهِ فقطعها وشقّقها وفرّقها ايدي سبا . ولكن ما كلُّ سمراء تمرة فقد وجدناها اصلد من الصخر الاصمّ وما هي الّا اخشاب بليت دقائقها الخشبيّة وحلّت الدقائق الصوّانية محلّها فتلبّست بشكلها كما يتلبّس الاشرار بثياب الاخيار . ولدى امعان النظر رأينا فيها تخاريب النسوس والديدان ممّا يكون عادةً في اشجار الآجام

ولبثنا في تلك الارض ساعتين من الزمان نتنقّل فيها من مكان الى آخر ونرى ما لا يقدّر من الاخشاب المتحجّرة وهي مختلفة الاشكال والاقدار من شظايا صغيرة لا يزيد ثقلها عن بضع قمحات الى اجذاع كبيرة يبلغ طول بعضها ثلاثين قدمًا وسحيطة ثماني اقدام فاكثر وهي ملقاة على بساط الارض معفّرة بالرمال مشقّقة شقوقًا عرضيّة كما تتشقّق الاجسام الطويلة القصفة اذا أُلقيت على الصعيد . ولونها مختلف باختلاف الرمال المحيطة بها من الابيض الرمادي او الاحمر الوردي الى الاسود القاتم او الكميت وصلابتها تفوق صلابة الصوّان . واماما الآن قطعة منها تشبه حجر الدم في لونها والياقوت في صلابتها والبناء الخشبي ظاهر فيها ظهورًا تامًّا فلا نستطيع ان نتصوّرها غير قطعة من خشب المشمش او الخرنوب او نحو ذلك من الاخشاب الحمراء . والناظر اليها يتوهّم ان السكين تبريها بري القلم ولكن هيهات ان يعمل بها الحديد وهي تخدّش الزجاج كما يخدّش الزجاجُ الخشب

والذين ذهبوا الى هذه الاجمة قبلنا لم يجدوا في اشجارها المتحجّرة لحاء ولا جذورًا ولا اجذاعًا قائمة فاتخذوا ذلك دليلًا على ان المياه طمت عليها وعبثت بها فأبلت لحاءها وكسّرت فروعها وقطعت جذورها وتركتها اجذاعًا جرداء . وطمرتها الرمال فاستحال خشبها صخرًا وبقي بناؤها على وضعهِ الاوّل حتى ان العارفين بطبائع النبات الذين يعرفون نوع الشجر من بناء خشبهِ يعرفون نوع هذه الاشجار من بنائها الظاهر

وبُعد هذه الاجمة عن القاهرة نحو ساعتين وهي الى الشمال الشرقي منها . وقد ذهب الدكتور شفينفورث الى ان اشجارها نمت حيث هي الآن على الاتربة الكلسيّة التي كانت في عصر الايوسين ثم خسفت بها الارض وطمرتها المياهُ فذاب التراب الذي كانت قائمة فيهِ فارتمت وعبثت بها امواج الماء فكسّرت اغصانها وقطعت جذورها وأبلت قشورها ثم شخصت الارض

ثانية في بداءة عصر الميوسين ونضب الماء عنها فأصبحت على بساط الارض كأنها اشلاء القتلى في موقعة من مواقع القتال . وأسفت الرياح وامواج البحر الرمال عليها فطمرتها وجعلت دقائق السلكا من الرمل تقوم مقام دقائق الخشب البالية الى ان استحالت كلها صخورًا صوَّانيَّة . وقد جرى على هذا المذهب السر وليم دوسن الجيولوجي الذي زار هذه البلاد منذ ثلاث سنوات . ووافقها الاستاذ هكسلي في كيفية الاستحالة ولكنه خالفها في منبت هذه الاشجار وعنده انها كانت نابتة في البلاد العالية من اصوان الى السودان فقلعتها السيول وجرفتها مياه النيل في عصر الميوسين كما ان مياه المسيسبي تقتلع الاشجار الآن من غابات اميركا وتجرفها وتلقيها في اجوانو فتحطَّمت في طريقها وتقطَّعت اغصانها وجذورها لكثرة ما عانته من الصدمات

هذا من قبيل الاجمة الشرقيَّة اما الاجمة الغربيَّة فعلى ساعتين من اهرام الجيزة وقد اخبرنا الدكتور غرانت بك انه ذهب اليها مع السر رتشرد اون الطبيعي المشهور فوجد اشجارها مثل اشجار الاجمة الشرقيَّة وبحث السر رتشرد اون في بنائها فوجدها من ذوات الفلقة الواحدة ومن ذوات الفلقتين ولا بدَّ لمن يذهب اليها ان يأخذ معه ماءه ومظلَّة لانها في قفر اجرد لا ماء فيه ولا افياء . وفي وادي النيل آجام أخرى متحجِّرة وكلها من عصر واحد على ما يظهر

وقد اكتشفوا آجمة متحجِّرة في اميركا تسمَّى اجمة اريزونا مساحتها نحو الف فدَّان وفيها نحو مليون طن من الاشجار المتحجِّرة . واشجارها قد صارت حجارة كريمة من العقيق واليشب لوقوعها في اراضٍ بركانية وطول البعض منها مئة وخمسون قدمًا ودورهُ ثلاثون قدمًا فاكثر . ومنها شجرة ممدودة فوق وادٍ عمقهُ ٤٥ قدمًا وعرضهُ ٥٥ قدمًا والظاهر من الشجرة طولهُ مئة قدم ويخفيها الصخر الرملي من طرفيها . وليست هذه الاشجار كلها بصفاء العقيق واليشب ولذلك ترى الصنَّاع يغالون بالصافي منها فقد اشترى بعضهم قطعة طولها ثلاثون قيراطًا وقطرها اربعة وعشرون قيراطًا بخمس مئة ريال

هذا وياحبَّذا لو قام في البلاد المصرية من يتفرَّغ للبحث عن آثارها الطبيعيَّة من ابنائها كما قام منهم من يبحث عن آثار المتقدِّمين فيها

الجنون والجرائم

ضمَّنا مجلس انس مع نفر من اهل الادب المتبحرين في علم القانون فجرَّنا الحديث والحديث ذو شجون الى مسئلة من اكبر مسائل هذا العصر ألا وهي مسئلة الجرائم والجنون واختلاف القضاة والاطباء فيها وتباين آرائهم في مبادئها ومبانيها فخاض كلٌّ في مضمارها بحسب مذهبهِ العلمي وكان